رؤيــة عبد القاهر الجرجاني ّ

لما طبع عليه بنو آدم من محبّة طلب العلم والمعرفة

أ.د. محمود توفيق محمّد سعد(*)

بيّنت في الجزء الأوّل من المقال الســابق ما ذهب إليــه عبد القاهر أنّه ممّا فطرت عليــه النّفس السّــويّة والعقل النّصيح الّذي هو أهلٌ لأن يكــون عقلًا علميًّا يبحث عن الحقائق ويوثّقها بالبراهين الصّحيحة، وفي هذا الجزء يُبِين عمّا يترتّب على ذلك.

إذا مــا تحقّــق ذلك الّذي ذكرنــاه في الجزء الأوّل، فإنّه يتحقّق للعقل منه أربعة أمورٍ:

أ) الثقة بالحجّة.

ب) الاستظهار على الشّبهة.

ج) الاستبانة للدّليل.

د) والتّبيّن للسّبيل.

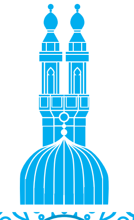
تلــك هي ثمار تحقيق مــا تتوق إليه النّفس السّويّة والعقل النّصيح وما ينزعان إليه.

الثّمرة الأولى: الثّقة بالحجّة:

الوثــوق بالحجّة يحقّق لك اليقين: «التّثبّت» فيكون مــا أنت فيــه قائمًا في أمــرٍ موضوعيّ تضع يدك عليه. ليس أوهامًا تتقاذفك .

يقــول عبــد القاهــر: «لا يكفــي فــي علــم «الفصاحــة» أن تنصــب لهــا قياسًــا مــا، وأن تصفها وصفًا مجملًا، وتقول فيها قولًا مرسلًا، بل لا تكون من معرفتها في شيءٍ حتّى تفصّل القــول وتحصّل، وتضع اليــد على الخصائص الّتــي تعــرض في نظــم الكلم وتعدّهــا واحدةً واحدة، وتسمّيها شيئًا شــيئًا، وتكون معرفتك معرفة الصّنع الحاذق الّذي يعلم علم كلّ خيطٍ من «الإبريسم» الّذي في الدّيباج ... إلخ»[1].

تبصّــر قوله: «وتضع اليــد على الخصائص الّتــي تعــرض في نظــم الكلم وتعدّهــا واحدةً واحدةً، وتسمّيها شيئًا شيئًا»[2].



(*) الأستاذ في جامعة الأزهر، وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشّريف.

(١) دلائل الإعجاز، قراءة محمود شاكر. ص: ٣٧، فقرة (٩٢).

(٢) في هذا تقريرٌ لفريضة الموضوعية والاستقراء، والتعيين، وهي أصول كليّةٌ في أيّ منهج بحثٍ علميّ، وبذلك يتبيّن لك موقع مقالة عبد القاهر من مقالة الّذين جاءوا من بعد، فتكلّموا في قواعد المنهج العلمي.

ينظر: رسالة «مقال عن المنهج» لرينيه ديكارت، ترجمة محمود الخضيري، نشر وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي، القاهرة.

وينظــر: تفســير أ.د: زكــي نجيب محمود له في كتــاب «المنطق الوضعــي» الجزء الثــاني، أو تفسير أ.د: شوقــي ضيف في كتابه «البحث الأدبي».

الوثوق بالحجّة يحمل من طور «التّقليد» إلى طور «الاجتهاد»، فكلّ من استبصر الحجّة، وسبرها واستوثق منها، فإنّ المحتجّ له أضحى لمن سبر حجّة منشئها أيضًا ، ولا يكون بتّةً مقلدًا.

ومن ثم نفقه معنى «اللّام» في «لك» من قول الله سبحانه وبحمده:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾

(الإسراء: ٣٦)

وهذه الآية حجّةٌ على كلّ ذي عقلٍ أن لا يجعله مقودًا لما لا علم له به، فكلٌّ عليه أن يكون تبيع عقله العليم لا عقل غيره، وتعطيل عقله من الكفر بنعمة الله سبحانه وبحمده.

الثّمرة الثّانية: الاستظهار على الشّبهة:

هذه الثّمرة تقيمك فتيًّا، تقهر الشّبهة، تبطلها، بل تزهقها بالحجّة الوثقى، واقتلاع الشّبهات من العقول من الفرائض الواجبة على أهل العلم وطلبته؛ لأنّ ذلك يجعلك مخرجًا نفسك وغيرك من الظّلمات إلى النّور.

وتلك رسالة الأنبياء.

والسّنّة البيانيّة في بلاغة «الإقناع» في الكتاب والسّنّة، اقتلاع الشّبهات، وتخلية العقول من العوائق، فهذه التّهيئة والتّصفية والتّزكية المتمثّلة في اقتلاع الشّبهات ظاهرةٌ جدًّا في مناقدة الأنبياء للمعاندين في بيان الوحي.

و«إعراب عبد القاهر بقوله: «الاستظهار على الشّبهة» إعرابٌ فتيّ؛ فالاستظهار امتطاء ظهر الخصم، و«السّين» و«التّاء» في صيغة «استظهار»، يرمى بهما إلى التّمكّن الّذي هو ثمرة كمال الاجتهاد في الطّلب، فما يزال معنى «الطّلب» في صيغة «استفعل» لا تتخلّى عنه، وإن كان القصد إلى ما يتركّب على كمال تحقّقه، فليس القصد هنا إلى طلب الظّهور على الشّبهة فحسب، بل الهدف الأنفَس هو تحقيق تمكّن الاستظهار، وفي قوله «على» ما يؤازر ذلك، وهو -كما ترى- تصويرٌ استعاريٌّ؛ إذا أنت أحلت «الصّورة السّمعية» في عبارة «الاستظهار على الشّبهة» إلى صورةٍ بصريّةٍ مشهودةٍ، رأيت عظيم ما يبذله المستظهر على الشّبهة من جهدٍ، ممّا يهدي إلى وجوب أخذ العدّة، واكتساب المهارات والخبرات لتحقيق ذلك.

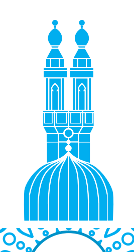
الثّمرة الثّالثة: الاستبانة للدّليل:

هذه الاستبانة تحليةٌ من بعد تخلية: (الاستظهار على الشّبهة) «السّين» و«التّاء» في صيغة: «الاستبانة» كالّتي في « الاستظهار» تتجاوز معنى الطّلب الأجرد إلى معنى التّمكّن.

وقوله: «الاستبانة للدّليل» يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون المستبان هو الدليل، فهي واقعةٌ عليه، أي: أن يكون الدّليل بالغ الاستبانة، وهذا لا يكون إلا إذا كان الدّليل قديرًا موصّلًا إلى الحقيقة.

والآخر: أن يكون المعنى تمكّن إبانة الدّليل الموصّل إلى الغاية، فـ «اللّام» في قوله: «للدّليل» على هذا لا تعني: أنّ الإبانة واقعةٌ على الدّليل، فيكون هو المبيَّن، بل الإبانة من



الدّليل على سبيل التّمكّن، فهو المبين، وليس المبان؛ أي: إنّ الدّليل مبينٌ إبانةً مكينةً، فهو دليلٌ خرّيت برّيتٌ.

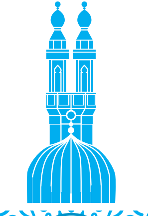
الثمرة الرّابعة: التّبيّن للسّبيل:

السّبيل هو الطّريق المديد، فمادّة «س ب ل» تفيد معنى الامتداد، ومنه «المسبل» الّذي يطوّل ثوبه ويرسله إلى الأرض إذا مشى، وهو للرّجل منهيٌّ عنه، وللنّساء حميدٌ، ويقال: مطرٌ مسبلٌ أي متتابعٌ لا ينقطع، فكلّ ما كان ممتدًّا، فهو سبيلٌ، والفرق بينه وبين الطّريق أنّ الطّريق يلاحظ فيه التّطريق، أي: إنّه كثر السّير عليه حتّى طرّق، فصار واضحًا ممهّدًا، وإن كان غير مديدٍ، والسّبيل الممتد، وإن لم يطرّق، فقد يستحيل السّبيل طريقًا بكثرة تطريقه؛ أي: السّير عليه.

وتبيّن السّبيل، أي: جعله بيّنًا لا يلتبس مع غيره ليأمن سالكه - وإن طال به - من الانحراف أو الزّيغ، فلا يستوحش وإن كان في السّبيل فريدًا. فكثيرًا ما تكون الغايات شاطنة، فلا يؤدّي شطونها إلى استيحاشٍ أو مخافة الضّلالة، فسالكه على بصيرةٍ نافذةٍ مطمئنّةٍ.

ويأتي بيانه عن «المسند»: شيءٌ في سوس العقل وفي طباع النّفس إذا كانت نفسًا، أي: إذا كانت نفسًا صافية لم تلوثها الشّهوات.

وفي الإعراب بكلمة «سوس» مع العقل لطيفةٌ تتمثّل في ملاحظة «السّوس» الّذي هو ضرب من التّرويض والتّسييس الّذي يحيل إلى الإحكام، وهذا يتآخى مع كلمة «عقل».



«السّوس» تطبّعٌ وليد ممارسةٍ ومجاهدةٍ، بينا «الطّبع» هبةٌ وفطرةٌ وسجيّةٌ.

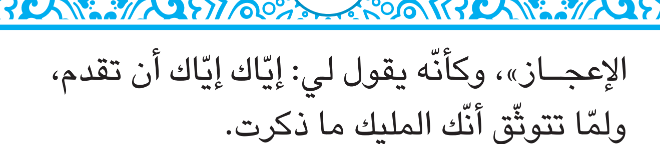
جعل التّطبّع الّذي يستحيل إلى طبعٍ بالمجاهدة والدّربة للعقل، ولعلّه لما كان الفاعل السّلبيّ في العقول هو الشّهوات، والفاعل السّلبيّ في النّفوس هو الشّبهات كان تطويع العقل وتطبيعه أحوج إلى السّوس، فأشار إلى تطبّع العقل بما أداه إليه، وهو «السّوس».

ممّا لا يخفى أنّ الشّبهات إذا لم تعالج، فإنّها مع تقدّم الزّمان تستفحل، بينما الشّهوات إذا لم تعالج فإنّ التّقدم العمريّ يضعفها؛ ولذا كان أصحاب الشّهوات أيسر معالجةً، بينما أصحاب الشّبهات أعسر معالجة.

جمعة القول وسلافته: أنّ مَن لم يكن أمره عقلًا ونفسًا مبنيًّا على ما ذكر قبل، فهو خارجٌ عن الفطرة، وأنّ ثمّ شيئًا ما عبث في عقله ونفسه، فأخرجهما عن الجادّة، فليرجع كلٌّ إلى نفسه وعقله ويسبر غورهما: أهذه الأصول قائمةٌ فيهما؟ أهما يتوقان إلى كشف أسرار العلوم والمعارف، وإلى أن تكون الأشياء في مواضعها، لتؤتي ثمارها؟ أهما لا يرضيان بظواهر الأشياء، ولا يرضيان من الغنيمة برؤيتها؟

الاستهلال بكشف حقيقة النّفس والعقل الآدميين فيه إعرابٌ عن أنّ المرء الّذي لا يكون هذا شأنه وفطرته هو غير مؤهلٍ لأن يخاطب بشيءٍ من العلم حتّى يغيّر ما بنفسه، ويطهّرها ممّا تدسّس فيها، فعبث بفطرتها وجبلتها.

كأنّي بعبد القاهر يهدينا إلى ما يجب أن نملكه كيما نقدم على قراءة كتابه «دلائل



الإعجاز»، وكأنّه يقول لي: إيّاك إيّاك أن تقدم، ولمّا تتوثّق أنّك المليك ما ذكرت.

وكأنّه يغريني أن أستثمر ما فطرت عليه النفس السّويّة والعقل النّصيح الصّحيح في قراءتي ذلك الكتاب، وكلّ كتابٍ، فمن لم يفعل فكأنّه كفر بنعمة العقل، وقصّر في حقّ ما يقرأ عليه.

لم يكن عبد القاهر في مواضع عديدةٍ من كتابيه: «الأسرار» و«الدّلائل» منكفئًا على محاورة العقل الصّرف في قضايا ومسائل بلاغيّةٍ علميّةٍ صرفة، مستهترًا فيها، لا يلوي على غيرها، بل كان يمزج هذه المحاورة بما يثوّر العقل والنّفس لتفعل ما هو الأمجد الأحمد من المحاورة والمناكشة والمناقدة واستنباط الكليّات، ثمّ استنتاج ما ليس بموجودٍ ممّا هو موجودٌ بتلقيح ما استنبط، ليترقى العقل العلميّ المسلم من درجة «التّحمّل» إلى درجة «الفقه» إلى درجة «الاستنباط» ثمّ يتبوّأ مقعد «الاستيلاد».

والله الهادي إلى سواء السّبيل.



